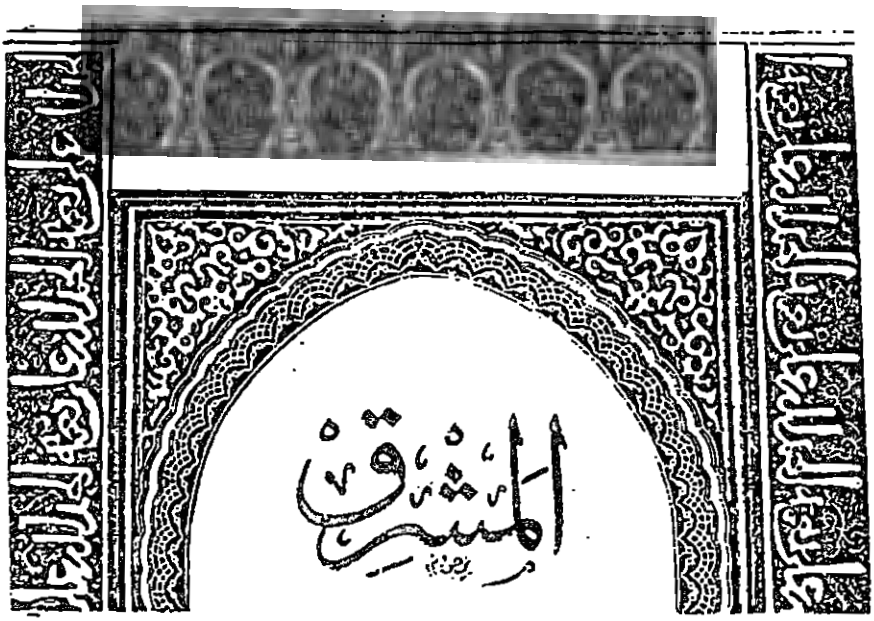

السنة الثلاثون كانون الاول ١٩٣٢

هل كان البطريرك مقاريوس كاثوليكياً ؟

بقلم حبيب الزيات (افالون : فرنسة)

كنا تكلمنا في خزائن الكتب (ص ٢٠٠ ــ ٢٩٠) على تردّد هذا البطريرك بين الكثلكة والارتدكسية . واشرنا الى ما نشأ عليه من اللين والتسامح ، وما عُرف به طول حياته من المجاملة والمداراة لاشياع الكنيسة الرومانية ، والتظاهر بالانتماء اليهم ومشاركتهم في العقيدة . ورجحنا مع ذلك اخراجه من مصف البطاركة الكاثوليكيين وتصحيح نسبته الى الروم الارتدكس . واستشهدنا على هذا الرأي بموافقته على كتاب بطرس موجيلا الروسي ، المعروف بقراد الكنيسة الشرقية . وقيامه في اسفاره ، ولاسيما في روسية ، عدة مقامات جاهر فيها بعداء اللاتين . ونشرنا فصلاً طويلاً من كتابه المشهور « بالنحلة » صرّح فيه ، بغاية الوضوح ، بحقيقة دخلته وانتحاله رأي الروم في القضايا الخمس الفاصلة بينهم وبين الكاثوليك . فلم يقع رأينا موقع الرضى لدى حضرة الاب قسطنطين الباشا . ولما نشر فصول « النخبة » التي نقدناها في المشرق (٣٠ [١٩٣٢] ٥٦١ - ٥٧٤) اتبعها بمقالة

طويلة حشد فيها كل ما تراءى له من الدلائل والاحتجاجات على صحة معتقد البطريرك المذكور وقضى انه لا محالة كاثوليكي لا غش فيه.

وقد طالعنا بغاية الارتياح والقبول كل هذه الشروح التي توسع فيها تعزيزاً لرأيه ومناضلةً عن دعواه . فلم نجد فيها ، بعد الدرس والمعارضة ، الا زيادة في البرهان على ما سبقنا وقررناه من تساهل البطريرك ومداجاته وتقلبه ومصافاته لرجال الكنيستين . ولم نعثر بينها على شاهد واحد قاطع بصدق نزوعه عن الارتدكسية وايثاره العقيدة الكاثوليكية . وقد راجعنا ما وسعنا مراجعته من كتاباته العديدة فلم نُلفه اقدم مرة على التلفظ بسمته الكاثوليكية . ولما اضطر يوماً الى الالماع اليها كنى عنها تكنيةً ولم يصرّح . وهو قوله في خطابه الملك لويس الرابع عشر « نحن من هذا الجنس الاصيل في حسن السيادة اعني سلالتكم الطاهرة » ، يعني الجنس الكاثوليكي ، كما فسره المرحوم الاب رباط ، وعنه نقل الاب قسطنطين . ولما بلغ القسطنطينية ، في سفرته الاولى سنة ١٦٥٣ ، اجتمع بسفير الملك المشار اليه « يوحنا الملقب بدالاَهِ » Jean Delahaye وشكا اليه الظلم الصائر على الكنائس والمسيحيين في الشام واستغاث به لتخفيف وطأته عنهم . وكتب في هذا المعنى نفسه عريضة بتاريخ نهار الاثنين ٢٩ تشرين الثاني من السنة نفسها حينما كان في بلاد البغدان رفعها « الى جناب الموقف العالي الملك الهادي والفايق في الديانة المسيحية لوداويكو ملك الرابع (كذا) لناليون » كما في نسختها المصوّرة عندنا . ولكن ابنه الشماس بولس اغفل ذكرها في تاريخ الرحلة ، ولم ينبث بينت شفة عن مقابلتهم للسفير المذكور ، مع انه توسع في حكاية كل ما وقع لهم في القسطنطينية وعدد كل زياراتهم واجتماعاتهم مدة ضيافتهم في البطريركية اليونانية . وكان اكثر ايامه ينظر الى الافرنج والكنائس الكاثوليكية بعين النفور والكراهة، كما يستدل من جملة مواضع من كتابه اوعبها طعناً وازراء كما سيجيء من كلامه. ولذلك صمت عن حكاية اجتماعهم بسفير « العظمة الكاثوليكية » . ولم يلتفت بحرف الى العريضة التي خطها بقلمه . وكان الولد ، كما قال عن نفسه في مقدمة الرحلة ، «تابعاً لوالده في كل امر يقتات بغذاء اقواله المحيية شارباً على

الدوام ماء تعاليمه المذبة المروية » . فلا شك انه وقف عند اشارته في كل ما سكت عنه او نطق به في كتابه .

وقد بلغ الهوى بحضرة الاب قسطنطين انه تحكم في اختيار الشواهد التي وقف عليها في مجموع المرحوم الاب رباط « الآثار الخطية » ، فنقل من الصفحة الواحدة ما وجده يؤيد مذهبه ، وتجاوز عن كل ما يخالفه او يضعف حكمه منها ، كما فعل في ما استخرجه من رسالة اندراوس اخيجان بطريرك السريان للملك لويس الرابع عشر بتاريخ ١١ شباط سنة ١٦٦٣ ، وقد جاء فيها انه في ايام القنصل فرنسوا بارون صار اتحاد الروم والارمن والسريان . قال : « فالحمد لله ان بطاركة هذه الطوائف الثلاث كاثوليك » . وانما اراد الكاتب ان يشير فقط الى ميلهم ونزعتهم الى الكثلكة ، لا انهم صاروا في الواقع كاثوليكاً . وقد صرّح بهذا المعنى بعد خمسة اسطر فقال يعني البطريرك مكاريوس : « ونظيرهم اخونا بطريرك الروم بدأ هو ومعظم طائفته ان يعرفوا الحقيقة » . ولا يخفى مغزى هذا القول على احد . وقد علّق عليه الاب رباط حاشية قال فيها « ليحتفظ بهذه العبارة لان ابتداء مكاريوس لم يصح قط كما يتبين من سياقة قصته . وقد توقف في رسالته الاتية (التي سبق ذكرها) عن الاقرار بانه كاثوليكي » (ص ٤٧٠) . ومع ان الاب قسطنطين قرأ كل هذا الذي اوردناه ، لم تطاوعه نفسه على نقل هذه الشواهد كلها ونقدها ، بل آثر الاغضاء عن قول البطريرك اخيجان الاخير وعن حاشية الاب رباط لما فيها من الخلاف لتأريله . واقتصر على ايراد عبارة اخيجان الاولى المقتضبة مع معرفته بما في تتمتها من البيان والاستدراك ، رغبةً منه في التوصل الى اثبات كثلكة مكاريوس .

ومن هذا القبيل ايضاً صنيعه في منشور المرسلين الافرنج في حلب سنة ١٦٦٢ ، قالوا فيه بعد حكاية استشهاد داود الرومي الملكي واهتداء تسعة من كهنة السريان مع بطريركهم اندراوس الآنف الذكر : « وهذه الحوادث كلها اثرت في نفوس كثيرين ولاسيما بطريرك الروم » . فعلق الاب رباط على هذا الموضع قوله : « هذا البطريرك هو مكاريوس الذي بقي كل حياته متذبذباً

بين الشقاق والوفاق حسب تأثيرات الحال ومصالحه الشخصية » (ص ٤٥٨) . فسكت الاب قسطنطين عن هذا الحكم الصريح كما سكت عما قبله ولم ينبّه عليها بحرف واحد . واقتصر على ما قرأه في المنشور نفسه ان البطريرك مكاريوس ارسل مع القنصل فرانسوا بيكيت رسالة الى البابا اعترف فيها بسلطته على الكنيسة الارتدكسية (ص ٤٥٩) . وقد استطال بهذا البرهان ، وهو في الحقيقة اهم ما عوّل عليه في اثبات دعواه .

على ان هذا التسليم من البطريرك برئاسة البابا سرًّا في رسالة خاصة لم يكن في الواقع الا خدعة خلب بها قلوب المرسلين ، وحلاوة من طرف اللسان والقلم جامل بها القنصل واللاتين ، مراعاة لاغراضه الحاضرة ، بدليل انه لم يتوقف لحظة عين بعد قليل عن الذهاب الى خلافه وهدم ما بناه ونقضه بموافقته على مضمون كتاب بطرس موجيلا الروسي ، المشهور بقرار الكنيسة الشرقية ، في المجمع الملتئم في القسطنطينية برئاسة البطريرك برثانيوس . وقد وقع عليه بقليه في جملة الحضور بتاريخ ١٣ اذار سنة ١٦٦٣ ، اي بعد اقراره بخط يده بسلطة البابا ببضعة اشهر . وهذا الانقلاب السريع كافٍ وحده للتعريف بالرجل وبحقيقة كثلكته الموهومة . وكل يعلم ما في الكتاب الروسي المشار اليه من العداء للبابوية والمخالفة لعقائد الكنيسة الكاثوليكية ، كما اثبت ذلك الاب مارتن جوجي الصهودي في مقالته في مجلة « اصداء الشرق »[1] فالتوقيع اذن على مثله اقرار لعقيدته وقبول لمذهبه . وقد اغضى الاب قسطنطين عن هذا البرهان القاطع لكل تأويلاته وتخريجاته ولم يتسجّل له اقل عذر كما تسجّل للفصل الذي نقلناه من كتاب « النحلة » . ولا يخفى ما في هذا السكوت عن كل ما خالف رأيه من التغرّض والعدول عن النزاهة المفروضة على كل مؤرخ نظيره .

وهذا الفصل المشار اليه في « النحلة » عربه البطريرك مكاريوس ليس عن كتاب بائيسيوس اسقف غزة ، كما زعم حضرة الاب ، ولكن عنه وعن كتب

1) Echos d'Orient. *La Confession Orthodoxe de Pierre Moghila, par* M. Jugie 1929. n° 156, p. 419.

اخرى ، كما جاء في مقدمة « النحلة والتاريخ الرومي العجيب الجديد » . وقد كتبه في سفرته الثانية ، بعد اقراره السري بسيادة البابا وتوقيعه على كتاب موجيلا الروسي ، وهو مثله مطبوع على غرار واحد في الانتصار للكنيسة الشرقية وتأييد قضاياها الخمس التي تنكرها على الكنيسة الغربية . وقد اختاره البطريرك حرًا غير مضطر ولا مكره . واطلق عن طواعية لقلمه العنان في روايته وشرحه دون اقل استدراك عليه او تنصل منه . فهو اذًا في نظره كما قال « من جملة الازهار الزكية التي طاف عليها وجنى منها » هذا الشهد . ولا ريب انه عده من جملة « المنافع الروحانية » التي ذكر انه كان يبحث عنها في كل « كتاب رومي غريب » حبًا بمنفعة قرائه . فاذا لم يكن مثل هذا الاختيار والتوسع في النقل دالاً على ما وراءه من المشاركة والمشايعة في الرأي والاعتقاد ، وبالتالي عنوانًا على دستور ايمانه ودخيلة مذهبه ، فما ندري ايّ شيء يعني سواه ! ولا ما كان الداعي اليه والباعث له على انتقائه واستخراجه ! وقد قيل دلّ على امرئ اختياره .

وقد ادرك الخوري قسطنطين ان في مثل هذا الاختيار والتعريب تبعة على البطريرك لا يتهيأ له تبرئته منها ، فاحبّ ان يرتاد له وجهًا آخر في الدفاع عنه فتخيّل له عذرًا جاء فيه بالطامة الكبرى . وهو ان بائيسيوس اسقف غزة « صانع البطريرك مكاريوس حتى عرب ما اراد من كتابه مع ما فيه من الزور والبهتان » (كذا ص١٣٨) . وافتراض مثل هذا العذر الغريب يترتب عليه طبعًا انه في شرع المعتذر يستطيع البطريرك ان يقبل الرشوة على تعليم ما يخالف ايمانه ويبقى عنده مع ذلك كاثوليكيًا . ولا شك ان قلم حضرة الاب خان فكره وتجاوز مراده ، والا فهو اوفر علمًا من ان يجهل ما في هذا الرأي من الشناعة والفظاعة ، فضلًا عما في اطلاقه على البطريرك من الحطّ من كرامته والازراء باخلاقه وآدابه .

ومما تعلل به ايضًا في الاعتذار عن فصل « النحلة » ان النسخة المخطوطة التي وقفنا عليها هي ، كما قلنا في وصفها ، نسخة مخرومة ناقصة . وادعى اننا لو طالعنا في مكانها نسخته الكاملة وقرأنا كلام البطريرك على فتح القسطنطينية

وعاقبة الشقاق على الروم لكنا عدلنا عما كتبناه (ص١٣٦). ولا نفهم اي عمل لنقص النسخة في نفي كثلكة البطريرك او اثباتها . وقد نقلنا من لفظه في شرح القضايا الخمس الفاصلة بين الكنيستين واحتجاجه للروم فصلاً برأسه تاماً كاملاً قال فيه ان « هذه الخمسة اشيا ابتدعوها الافرنج ومنها تزول كل الشكوك » . وليس بعد هذا التصريح حاجة للمزيد . واما ملامته الروم على الشقاق فلم ينفرد بها وحده بين اشياع الكنيسة الشرقية . وهي رأي كل مسيحي عاقل منصف . وكان في سفرته الاولى قد سمع من الطعن والانتقاد على الروم وملوكهم ورؤساء كهنتهم ما رواه في غير موضع من كتبه . ولا بأس ان ننقل هنا ما تلقنه ابنه الشماس بولس وسمعه مع والده من الروس في المعنى نفسه . قال بعد ان وصف طقس الاحد الاول من الصوم عندهم :

« ولا زالوا على هذه الحال يذكروا لكل قديس « فليكن تذكاره مؤبداً » من فم واحد ثلثا الى ان انتهوا من ذكر قديسينا وابتدوا في ذكر قديسيهم الجدد . . ثم ابتدا يذكر ساير ملوكهم رحم الله جميعهم وجعل حظنا معهم . الذين تملكوا من طول زمان هذا مقداره اكثر من سبعماية سنة كما ذكرنا اولاً . ولم يظهر فيهم احدًا محارب للايقونات ولا ارطوقي . الا ان جميعهم قديسين كما كنا نشاهد ايقوناتهم ونسمع اخبارهم . لا كمثل ملوك الروم الذين دعوا الملك لا رحمهم الله في محاربة الايقونات واراسيس وبدع وغير ذلك . لان يعلم الله كنا اذا نظرنا صور السبعة مجامع واولئك الملوك الارطقة ومحاربي الايقونات مصورينهم منحدرين الى الجحيم كنا نستحي من المصكوفيون ومن ملكهم واكابرهم . لانهم يتهزون جهم وبملكهم قائلين انظروا الى اولئك الملوك الذين من نورهم استنرنا بنور الايمان كيف كانوا يفعلون في كنيسة الله المقدسة من محاربة الايقونات والسجس والشرور . وكيف كانوا يعاقبون البطاركة ورؤساء الكهنة وكل طغمة الكهنوت مع الابرار والنساك والقديسين . اعظم ما كانوا يفعلون عباد الاصنام مثل ديوكلتيانوس ومكسيميانوس وغيره . وكيف ولا كانوا يفعلون ملوك الروم ذلك لانهم كانوا يملكون عليهم اعداء الدين مثل لاون الارمني وغيره رعاة الخنازير ومغلقطين المراكب وغيرهم الذين ليس هم من بيت الملك ولا من اهله . وكيف ولا وكانت ملكاتهم مثل افضوكسيا واضرابها . تلك التي اتقت قم الذهب وفعلت في كنيسة الله افعال ما فعلوها عباد الاصنام في زمانهم لاجل غرضها . وغيرها من الملكات الذين كانوا يعاملون على ازواجهم الملوك ويقتلوهم ويتزوجون غيرهم ويملكوهم كما يخبر التاريخ الرومي الجديد عنهم اخبار يا ليته لا كان ذكرها عن قبايحهم وتلاعبهم في المملكة كاولاد الصغار . لقد يخجل من سماعها الفتى . ولاجل هذه الاخبار وغيرها ومناقص اولاد الروم وقبايحهم الدايمة في كل مكان ما كنا نتكثر لهم بحب في كل مكان اصلاً . كما شاهدنا باعيننا

لان من جورهم في البغدان اراخنة فاسيلي وفسادم قامت الرعايا جميعهم وهزموه وقتلوا جميعهم وخيبوا اموالهم . وكذلك عدنا الان سمعنا ما جرى عليهم مثل ذلك في بلاد القلاخ كلها . ولا رأينا القزق يحبوهم . والمصكوفيون لا يقبلوهم الا شفقة منهم يتصدقون عليهم . ويا كم ما انفوا الى بلاد سيبيريا والى ديورة بحر الظلمات منهم . ويا كم حكام بوتيليا منها للورا يردوهم . وكل ذلك لكثرة قبايحهم وعظم شرورهم . واما في البلاد الافرنجية جميعها لا يطيقون ذكرهم قايلين لاضم م الذين بعكس تدبيرهم ضيعوا الملك منهم وقووا الترك لما ملكوها على ممالك غيرهم . فا م هولاء القوم . وما هي هذه فعايلهم . فاذا كانوا هكذا فعلوا من القدم ملوكهم فما هو عجب الآن ما يفعلونه من القبايح في ابن ما حلوا م وروسا كهنتهم . الله يلطف بنا وبهم . هذا الكلام ما هو دينونة منا . لكن هكذا كنا نسمعهم في اين ما اتينا يتكلمون عنهم . . . وكان لما يذكر الارشيدياكون اسماء جميع ملوكهم وملكاتهم واولادهم من حين ما صاروا مسيحيين الى عهد ميخاييل ابي هذا الملك كانوا يترغوا الكل واحد منهم « فليكن تذكاره مؤبداً » ثلثًا . . . ولما ذكر اسماء الاراطقة من البطاركة والكهنة وغيرهم من الملوك محاربي الايقونات كانوا يترغوا لكل واحد « اناثيما » ثلثًا . ولعنوا جميعهم مع سايز ملل الافرنج والارمن وغيرهم . » (١

فهل يصح ان يحتج بمثل هذا التنديد والازراء الشديد بالروم لاثبات ميل البطريرك للافرنج واقرار مذهبه الكاثوليكي في حين ان هذا الطعن منه في الروم لم يمنعه قط من موالاتهم ومشايعتهم في الايمان كل حياته تقيةً منهم او حرصاً على مصلحته لديهم ؟

ولم يكتفِ في سبيل هذه الموالاة والمشايعة بالتوقيع معهم على كتاب موجيلا الروسي ، وتعريب فصل « النحلة » في تضليل اللاتين ونسبتهم الى البدعة . بل تتبع من تلقاء نفسه مؤلفات الروم في هذا المعنى وعربها خدمةً لهم وتعصباً . وله اليوم في خزانة بريتيش موزيوم مقالة في « العلما الروم الذين كتبوا باللغة اليونانية مصنفات يردون بها على بدع اللاتين المحدثة وذكر اسمائها على ترتيب حروف الفابيطا » (*Codex* VIII, *Pars* II) . وعرب لهم ايضاً في سفرته الثانية « كتاب اخبار السبعة مجامع المقدسة المسكونية المشتمل على الاعتقادات المستقيمة البهية » وهو اعلان منه ومجاهرة بعدم قبوله المجمع الثامن كسائر رجال الكنيسة الارتدكسية . ولذلك كان يعلم في موسكو « الاعتراف بالمجامع السبعة ولعن المجمع الثامن » ، كما سيجيء .

١) رحلة البطريرك مكاريوس ، خزانة باريس : رقم ٦٠١٦ ، ص ١٦٦-١٦٧

وكان قبل سفرته الاولى حينما كان في حلب يقرب المرسلين اسوةً بسلفيه افتيميوس الرومي واقتيميوس كرمة ، ويظهر لهم المودة والولاء ، ويستعين بهم على التعليم في المدارس والوعظ والارشاد وقبول الاعترافات والكتابة والترجمة. وفي خزانة مجمع نشر الايمان وصف مفصل باللاتينية لكنيسة الروم في ايامه لا شك انه بقلم احد المرسلين الكبوشيين في حلب جاء عنه في اثنائه ما تعريبه ، بعد وصف البطريرك مكاريوس :

« تمكن المرسلون في عدة اجتماعات لهم ببطريرك الروم ان يتزلفوا منه وينالوا حظوة لديه . فاذن لهم ان يشرحوا الدين المسيحي للاولاد في خمس مدارس لهم واوصى كل المطيعين فيها ان لا يعارضوا ايًا كان من المرسلين . فتولى الاب سلفستروس تعليم مدرستين كان في كل منهما خمسون طالبًا. ووكل الثلاث الباقيات الى الاب بلاسيوس. وهذه الطريقة تمرّقنا بأكبر البيوت حيث كنا نُستقبل بأوفر الاكرام . وكان المرسلون اذا حضروا الذبيحة الالهية في كنيسة الروم يدنيهم البطريرك الى اقرب مكان منه . ويختفي جم غاية الاجلال . ولذلك كان الشعب كله او معظمه يحترمنا ويستمع منا كلام الله بغاية الورع والغيرة. »(١)

ولكن هذا الودّ والولاء للافرنج واللاتين ما عتم ان انقلب الى اشدّ الكراهة والبغضاء منذ وطئ البطريرك ارض موسكو وتلألأت في عينيه صفرة الذهب الروسي . ومن طالع كتاب الشماس بولس الذي جمع فيه اخبار رحلتها الى بلاد الفلاخ والبغدان وروسية وجده طافحًا بالطعن على الافرنج ولاسيما « اللاه الكفرة الملاعين » اي اهل بولونية ، مشتملًا على اقبح الشتم والانتقاص للاتين . وهذا نص ما كتبه عن اليسوعيين اصحاب والده بالامس. قال :

« كانوا اللاه دايما غادرين . . . ثم زادوا في ظلمهم الى ان سموا من شر اقوال قوس الايسوعية لا بل اليزيدية لهم . زعموا لينفوا القزق كلبم ويجعلوهم افرنج تابعون للبابا كمثلهم. » (ص ٦٦)

وقال ايضًا بعد ذكر الدير المعروف باسم نياح السيدة خارج كيوف :

« بسبب هذا الدير جرى ما جرى على اللاه من شر قوس الايسوعية لا بل اليزيدية

---

1) *Archivio della S. C. de Propaganda Fide.* Scritture non riferite dal 1622 a tutta il 1707, fol. 64.

الذين ارادوا ان ياخذوه من الارتدكسيين. وهو كان سبباً لزوالهم واضمحلالهم للغاية. »
(ص ٧٧)

وفي كيوف هذه سمع البطريرك بكل ارتياح وقيَّد ابنه بغاية الفخر والاعجاب. « ان لاهل كيوف اعتقاد كلي م وهذه البلاد جميعها الى المصكوف ان بطرك انطاكية هو صاحب الحل والربط وهو خليفة بطرس الرسول . وله وحده اولاً خوَّل السيد المسيح الحل والربط في السماء والارض وهو اقدم البطاركة. » (ص٨٤)

قال الشماس :

« وعلى هذا المنوال سأورد خبر لطيف الى محله هنا . وذلك انه جاء الى عند سيدنا البطرك في هذه بلدة كيوف كاهن مكلف روسي الجنس مقيم في مدينة جريز في الفرانسة واجتمع به بشوق كبير . . . اخبرنا هذا الكاهن المسمى بابا ايليا قايلًا انه خرج في هذا الزمان في بلاد الفرانسة رجل عالم فيلسوف للغاية مذهبه لوطروس وانقادت اليه خلايق كثير. هذا ظهر يشنع على هذا البابا اموراً كثيرة . منها انه ارسل اليه رسالة لرومية قايلًا له . سؤال . كان ملك عظيم الشان وكان له خمسة بنين . وكان يحبهم جميعاً بالسوية. ثم انه قسم ملكه بينهم بالسوية. وكذلك صار . فالواحد منهم انشق وزاغ عنهم وصار برأي نفسه . واما الاربعة فبقيوا على محبتهم لبعضهم بعض ووصية ابيهم فاي منهم يطاع . الواحد الذي خرج عن اخوته ام الاربعة الذين بقيوا على وفاقهم . ثم انه رد الجواب قايلًا ان الاربعة بطاركة والبابا خامسهم صاروا منذ عهد بطرس الرسول وبقية الرسل ومن المجامع المقدسة . وبقيوا شي واحد كما هو معلوم زماناً طويلًا على الايمان المستقيم اخيراً انحرف البابا عنهم اي انفصل من الجسد او الكف الاصبع الواحدة . فالواجب الاطاعة للاربعة لا لذاك . . . وقال الفيلسوف المذكور جواب ثاني. اذا كان البابا يدعي انه خليفة بطرس الرسول فالاولى بهذه الدعوى بطرك انطاكية لان بطرس الرسول اول ما صار بطركاً جا وحضي باكرام كلي جا. واما رومية فانه صلب جا . ثم اخبرنا الكاهن المذكور ان في سايز بلاد الافرنجية يحبون بطرك انطاكية ولهم به اعتقاد كلي بخلاف غيره. » (ص٨٤ — ٨٥)

ومن هذا الهذيان الذي دعاه الشماس خبراً لطيفاً ، واصغى اليه والده دون انكار ولا استكبار ، يستدلّ على المقام الذي قامه البطريرك في اسفاره بين رجال الكنيسة الارتدكسية ، والمقعد الذي قعده في المجامع التي شهدها في القسطنطينية وروسية . وبالتالي تظهر حقيقة معتقده في الكنيسة الكاثوليكية التي كان يرى نفسه احق من امام احبارها بخلافة بطرس الرسول . وكان هذا العداء منه للبابا والافرنج معروفاً لا يتوجه اليه اقل شك في نظر الروس

ولذلك لم يتوقف البطريرك نيكون عن تكليفه هداية الكهنة من اسرى بولونية من الضلال البابوي كما حكاه الشماس قال :

« سلم البطرك نيكن لسيدنا البطرك ستة كهنة من بلاد اللاه مشرطنين من قبل كردينال البابا المقيم في مدينة ڤيلنا . . . ولباس كهنوتهم مثل كهنتنا الا انهم كانوا ينوهوا باسم البابا . حتى وقنداق قداسهم مثلنا . فهولاء لما استحوذوا احد اراخنة الملك على احد البلاد واخرب كنايس اللاه وقتل الكهنة تضرعوا اليه هولاء واخبروه انهم ارتودكسيين . فارسلهم الى عند البطرك نيكن لينظر في امرهم . فلما جاؤا اقاموا احد عشر جمعة لا احد ينظر اليهم لكثرة اشغال البطرك الى الان . حتى فرج الله لهم على يد معلمنا . . . اخذناهم عنا لكنيسة المكة . ثم احضرنا له اثنان من اوليك الكهنة . . . ابتدا سيدنا البطرك يلقنهم اسرار اعتقاد الامانة واحدة واحدة والاعتراف بالمجامع السبعة . وباركوا ما باركوه ولعنوا ما لعنوه . ثم لعنوا الاراطقة والمجمع الثامن والبابا . . . » (ص ١٨١)

فهل من كانت هذه سيرته وسريرته ، وكان هذا بلاؤه وغناؤه بين رجال الكنيسة الارتدكسية ، ومن اقدم على لعن المجمع الثامن والبابا ، وكان يرى نفسه اولى من البابا بالحل والربط واقدم نسباً في خلافة بطرس الرسول يصح ان يعد كاثوليكياً في نظر الاب قسطنطين ؟ نعم انه قرّب المرسلين في حلب ودمشق ، وتظاهر بموالاة اللاتين وقبول الكثلكة ، وارسل رسالة الى البابا اعترف فيها — فيما رواه بعض معاصريه من الافرنج — بتقدم الحبر الاعظم وسلطته . ولكنه ما عتم ان قلب ظهر المجن ووقع على كتاب موجيلا الروسي ، وعرّب فصل «النحلة» والمصنّفات المعادية للكنيسة الرومانية ، وهزأ بالقنصلين بيكيت وبارون ، وشايع الروم والروس ، ومكر بالمرسلين . وحارل بعد عودته من موسكو فتق ما رتقوه وتفريق ما جمعوه ، كما نبّه على ذلك شاهده الاب ميشيل نو اليسوعي في رسالة له باللاتينية بتاريخ ١٧ اذار سنة ١٦٧١ محفوظة في مجمع نشر الايمان ، وصف بها كنائس دمشق وقال فيها ما تعريبه :

« في هذه المدينة يمتاز الروم بين النصارى بثروتهم وكثرتهم . وقد نقلوا اليها منذ زمان قديم الكرسي البطريركي الانطاكي . وهم يحتفلون في كنيستهم بطقوسهم بنباية الابهة . وليتهم يقيموا بمثل هذا القدر من التقوى والايمان . وكان بطريركهم مكاريوس قبلاً مؤثراً لنا . ولكنه اليوم بعد رجوعه من البلاد المسكوفية وازدياد اقتداره يظهر انه رجل آخر بلسان آخر . قدّر الله ان لا يهدم في ايام قليلة ما بنيناه نحن في سنين كثيرة . »

وهذا نص الاصل باللاتينية :

Graeci verò hac in Urbe inter Christianos multitudine, et opibus eminent. Jam dudum est cum huc Antiochenam Patriarcalem Sedem transtulerunt. Quae sui sunt ritus in suo Templo magna pompa exequuntur, utinam pari pietate, et fide. Nobis olim favebat qui ipsis praeest Patriarcha Macarius. Nunc post suum è Moscovia reditum auctis facultatibus alius videtur, et alia loquitur. Faxit Deus ne diebus paucis ea diruat, quae annis pluribus summus commoliti .(1)

ومما يزيد في قدر هذه الشهادة انها كتبت ست سنوات بعد ان ارسل مكاريوس عقيدته الكاثوليكية المزعومة الى رومة . وهو ما يدل على انها لم تكن منه الا تملقاً وشتشقة لسان . وقد مرّ علينا نيف وثماني سنوات ونحن نتطلبها في رومة بين هذه الاوراق المشتة في مئات من المجلدات المتراكمة في مجمع نشر الايمان دون ان نظفر بضالتنا منها . وقد وقفنا في اثناء هذا البحث الطويل الشاق على عدة عقائد كاثوليكية لبعض خلفاء مكاريوس واساقفتهم بتواقيعهم الاصلية ، نظير اثناسيوس الدباس ، وكيرلس الزعيم حفيد مكاريوس ، ومثل مكاريوس اسقف طرابلس ، وبرثانيوس اسقف بعلبك ، وسلفستروس دهان مطران بيروت ، وقزما رئيس اساقفة طودسينا ، وبرثانيوس اسقف آمد (ديار بكر) ، وجراسيموس وناوفيطس نصري اسقفي صيدنايا ، وغيرهم من رجال الكنيسة الملكية بين اواخر القرن السابع عشر واوائل القرن الثامن عشر في الحقبة السابقة تميز الطائفتين . فلم يكن غياب عقيدة مكاريوس وحدها دون سواها الا ليزيدنا ريبة في صحتها واستقامتها واعتقاداً في ابهامها وشبهتها . وبالتالي يقيناً في تنحية مجمع نشر الايمان لها ، حتى عثرنا اخيراً على نص صريح ناطق بتحويلها الى ديوان التفتيش(2) . وهو كما يُعرف ديوان كل متهم ظنين . وتعقبها هنالك لا تطوله اليد ، ولعله لا يتهيأ اليوم لاحد .

1) *Archivio della S. C di Propaganda Fide*. Scritture Riferite nei Congressi Siri a. 1631 – 1773, vol. 1.

2) *Acta S. C. di Propaganda Fide, 1663 Cong., 19 Gen.* n° 6, fol. 5 v°.

وهذا التحويل لديوان التفتيش كافٍ وحده لاسقاط البرهان الفرد الجدير بالاعتبار الذي بنى عليه الاب قسطنطين صرح دعواه . وقد كان امساك المجمع عن قبول عقيدة مكاريوس والجواب عليها معروفاً في دمشق لا يُشتبه في تأويله . وكان تذكاره لم يبرح من بال البطريرك كيرلس حتى بعد انقضاء خمسين سنة عليه . ولذلك لم يغفل عن الاشارة اليه والاحتجاج به حين كلف الخوري سارافيم طاناس ان يجيب عنه دعوة البابا له للوفاق . وهذا تعريب ما ورد في هذا الصدد في محضر المجمع المقدس بتاريخ ١٢ تشرين الثاني سنة ١٧١٥ :

« قال ايضاً سيرافيم طاناس انه لما اقنع بطريرك الروم بالخضوع للسدة الرسولية قال له البطريرك انه يجب قبلاً ان يرسل له البابا رسالة يدعوه فيها ، وانه بعد ذلك يعترف برئاسته عليه وينادي بالايمان الكاثوليكي في كل المشرق لانه لا يشاء ان يجري عليه ما جرى على عمه (غلطاً بدلاً من جده) في ايام قداسة البابا أربانس الثامن (كذا) حين ارسل الى رومة دستور ايمانه ولم ينل قط جواباً عليه . »[1]

وفي خزانة المجمع ايضاً رسالة لرئيس الآباء الكرمليين في حلب بتاريخ ٣ ايار سنة ١٦٨٢ فيها ذكر البطريرك مكاريوس وانه « مات بعد ان عاد الى شقاقه »[2] . ويستدل من هذه الكتابة وامثالها مما كان يرد قبلاً على المجمع ان رومة كانت لا تجهل حقيقة دخلة مكاريوس ومداهنته وقلة اخلاصه . ولذلك لم تُستدرج بخديعته ولم تخدع بعقيدته ، وعرفت انه إمّعة لا يستقرّ على مذهب من المذاهب ، بل ثعلب مسنّ من اروغ الثعالب .

1) *Acta S. C. di Propaganda Fide d'all'anno 1715*, f° 602.

2) *Acta S.C. di Propaganda Fide d'all'anno 1682* f° 289, lettre du P. Angelo di Gesù e Maria, Supérieur des Carmes d'Alep.